الفصل الرابع

الترتيب المصحفى للقرآن

نقرأ كثيراً من التعليقات والإدعاءات حول الترتيب المصحفى للآيات والسور، على لسان المستشرقين الذين تناولوا الموضوع من نواحيه المختلفة، على أن حصر أعداد من أقر بالترتيب التقليدى للمصحف بات مستحيلاً لعدم جدواه ، فى حين أن بعض المستشرقين قد انتقدوا ترتيب القرآن المصحفى واقترحوا ترتيباً آخر له يناسب ذوقهم الخاص،فهل من الشرورى أن يؤدى جهلهم إلى كل هذا العداء المسبق للحق والعدل ؟ لقد وصف المستشرقون الذين ظهروا فى العصور الوسطى وأمثالهم (ريكاولدو) (Ricoldo) و(فينست دى بوفيس) (vincent de Beauvais) وصفوا القرآن بأنه : « مُخْتَع ، ومشتت ..... ، ولا يوجد به أى تحديد للتاريخ عن طريق الحقبات الزمنية وعهود الملوك »[1].

وحاكاهم ـ بكل أسف ـ بعض المستشرقين الذين جاءوا من بعدهم، فكروا مزاعمهم بصورة ميكانيكية تلقائية ، وكأنْ لم يبذل أدنى مجهود علمى لإثبات صحتها ، ولسوف نستعرض نخبة ممثلة لهذه الإدعاءات على الصفحات القادمة متناولين كافة زواياها بالتحليل ، وساردين لآيات قرآنية تتضمنها المناقشة .

فلقد انتقد كل من (موير) (Muir) ، و(نولدكه)(Noldeke) ، و(بالمر) (Polmer)[2] و(رودريل) (Rodwell)[3]، و(لين) (Lane)[4]،

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٦٠ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmar) .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) .
(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane) .

كما زعم بعد ذلك مؤخراً مستشرقون أُخر مثل (جفرى) (Jeffery)[١] و(كراج) (Cragg)[٢] ، و(كريتزيك) (Kritzeck)[٣] انتقدوا القرآن لأن السور قد رتبت فيه بصورة معاكسة لتلكل التى نزلت بها حسب ظنهم .

واتهم (رودويل) و(تريتون) (Tritton)[٤] زيد بن ثابت ورهطه بإهمال جل جزئية من جزئيات نظام السور ، متغاضين عن حقيقة أن مجموعة زيد كانت تتبع المنهج المصحفى القرآنى الذى انتهجه الرسول ﷺ نفسه بمنتهى الدقة ، كما تخيل كل منهما أن زيداً وضع بكل بساطة « الجزء الأكبر وما رآه معروفاً بالنسبة إليه أولاً ، ثم اتبعهما (كريتزيك) (Kritzeck) بأن اتهم زيد بن ثابت رضى الله عنه بتلفيق نظامه الخاص لترتيب السور فقال : « تم هذا بدون أى اعتبار لتواصل الموضوع ، وتناسق الأسلوب » حسب تقديره ، ثم استطرد : « والمحصلة التى لدينا هى عمل من أصعب ما يكون من ناحية القراءة وكذلك من ناحية تضارب الأفكار »[٥] ، وبعد ذلك جاء (جفرى) (Jeffery) فاتهم زيداً وجماعته باتخاذهم وحى النبى ﷺ قاعدة « انطلقوا منها لترتيب المصحف وفق ما استحسنوه ، وأضافوا إليه مواد أخرى رأوها مناسبة »[٦] ، وهذا الاتهام الأخير هو من أكثر الاتهامات شناعة وضحالة واستهتاراً بالحق ، ولكن ما يدهشنا هو أن هذه التخمينات لم تشتمل على مثال واحد يثبتها ويجسدها للحقيقة ، فهذه « المواد الأخرى » التى زعمها (جفرى) إن وجدت يوماً ما خارج خيال المستشرقين ـ لابد وأن تكون

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (الإسلام ومحمد) ص ٤٧ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Cragg) كتاب (الإسلام المعاصر) ص ١٧٥ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Kritzeck)
(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Tritton) وفى المرجع انظر ص ١٥ .
(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Kritzeck) وفى المرجع انظر ص ٣٥ .
(٦) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (القرآن) ص ١٥ ، ١٦ .

واحدة من اثنتين : إما شيئاً على غرار باقى أسلوب الآيات القرآنية ، أو مختلفاً عنه ، فإن كانت هذه المواد تنتهج نفس أسلوب القرآن فى آياته ، فلاشك حينئذ أن هناك مؤلفين آخرين للقرآن استطاعوا أن يأتوا بسورة من مثله ، ولكن الذى حدث هو أن التاريخ قد أثبت أن هذا لم يحدث مطلقاً ، وأن التحدى لا يزال قائماً إلى يومنا هذا ، وأما إن كانت هذه المواد الأخرى من أسلوب آخر ، فمن المؤكد أن الخبراء اللغويين كانوا سيميزونها ويستخرجونها من بين الآيات بكل بساطة ، ولكن لم تثبت فى أى من المؤلفات عبر القرون أدنى وجود لأى شائبة فى الأسلوب القرانى ، وبرغم ذلك يصر (جفرى) فيقول : « إن كل ما يحتويه المصحف أصله إلى الرسول، ولكن توجد أجزاء قليلة به توجب علينا أن نشك فى أصالتها وصحتها » ، مع العلم أن إصراره هذا لم يؤيد بمثال واحد لثبت مثل هذه الإدعاءات المزعومة[1] .

وقد دفع بعض الكتّاب بأنفسهم إلى مجال الاتهام الطائش للنبى ﷺ نفسه ، فوصفوه : « بتعمد الخلط بين الوحى القديم والجديد فى القرآن ، ولم يكن هذا الخلط من أجل الحصول على هذا الأسلوب العجيب الذى بدا باهراً لكل من يقدرون حقيقته ... ، بل كان لغرض تخفيف الحدة لبعض العبارات التى نزلت قبلاً »[2] . والآن ؛ هل يمكننا وصف اتهام كهذا للهيكل التاريخى المتين لحقائق كل سورة ، بل لكل آية ، إلا بأنه ثمرة لفقدان الوعى والمعرفة ؟ إن هناك العديد من الكتب العربية والأجنبية التى تبحث فى تفسير القرآن ، فيها تدرس كل آية ، ويتم تحليلها بناء على ما بها من قواعد نحوية ، وأشكال تركيبية ، كما يتم تحليل مناسبة نزولها ، ونواح أخرى تتعلق بها ، فهل بات أولئك المستشرقون دارسين ومراجعين لأمثال هذه الكتب ؟ لقد جهلوا إذن وضلوا ضلالاً بعيداً .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jettery) كتاب (القرآن) ص ١٥ ، ١٦ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٧ .

محاولات التغيير فى الترتيب المصحفى :

لقد استبدت بعقول بعض المستشرقين فكرة تتابع السور القرآنية حسب ترتيب النزول ، ولكن الحقيقة التى بقيت واضحة هى أن فكرتهم هذه ـ حتى إذا سلمنا جدلاً بمعقوليتها ـ تبدو مستحيلة التطبيق على كثير من السور ، لسبب بسيط ؛ هو أن هذه السور تشتمل كل منها على نوعى الوحى، القديم منه والحديث ، وهو ما سيتم شرحه فيما يلى، ولكن يمكننا الإشارة هنا إلى أن بعض المعلقين على القرآن قد بدوا غير محددين للترتيب الصحيح لسورة كما زعموا ، ومثالهم (موير) (Muir) الذى اعتقد أن سورة (الفاتحة) هى السورة السادسة على حين تصور (رودويل) (Rodwell) أنها الثامنة ، وتصورها (نولدكه) (Noldeke) الثامنة والأربعين ، بينما أنكر (جفرى) (Jeffery) أنها من القرآن أصلاً، وغير ذلك من المزاعم الخاطئة التى سنعرضها لها فى الملحق الأول من هذا الكتاب حيث سيتم حصر الترتيب المصحفى للسور ومقارنة الترتيب الحقيقى لنزولها بما وضعه كل من (موير) و(نولدكه) و(رودويل) و(جفرى) ، ولكن ما يبدو مثيراً فعلاً هو ملاحظة تنظيم (موير) الذى وضعه سنة ١٨٦٠م واقتبسه (هيوز) (Hughs)[1] واستشهد به سنة ١٨٩٤ ، فهذا التنظيم يختلف فى نواح كثيرة عما جاء به (موير) نفسه واستشهد به (بل) (Bell) واقتبسه بعد ذلك عام ١٩٥٨م [2]، وهو ما يدفعنا للتساؤل ؛ أليس غريباً وعجيباً أن تتباعد الاستنتاجات والمحصلات الفكرية لهؤلاء الرجال بالرغم من أنهم يسلكون نفس المنهاج فى التفكير والبحث ؟

إن الشىء الوحيد الذى يشتركون فيه جميعاً هو ذلك الإصرار العنيد على عدم تقبل مارسخته المعتقدات الإسلامية ، وارتضاه المسلمون عبر القرون لموضوع الترتيب المصحفى لقرآنهم الكريم !!

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٢٥ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص١٠٩ ـ ١١٥

افتراضات (رودويل) :

لقد ظهر أن (رودويل) (Rodwell) كان فى غاية التحمس لتأليف نظرية ـ أية نظرية ـ يفسر بها ما اختلقه من ترتيب تنزيل آيات القرآن ، وابتدأ من حقيقة أن الآيات التى نزلت مع أول الوحى كانت تتسم بالقصر ، وحاول أن يضع على أساسها ترتيباً جديداً للسور المختلفة ، ومثال ذلك ، لقد علق على سورة (الملك) فقال : « إن الآيات من ٨ ـ ١١ من الواضح أنها نزلت متأخرة عن بقية السورة ثم ألحقت بها لأن كلا منها أطول بكثير من بقية آيات السورة »[1] .

ولا شك فى أنه بمجرد النظر إلى المصحف العربى ـ وهو المادة الوحيدة الجديرة بالدراسة من دون الترجمات ـ نجد أن الآيات المذكورة فى تعليق (رودويل) وهى (٨ ـ ١١) فى سورة الملك تحوى أعداد الكلمات الآتية على التوالى (١٣ـ١٩ـ١٢ـ٥) ، على حين تتفاوت بقية الآيات فى السورة فى أطوالها ما بين (٨ ـ ١٨) كلمة ، ولكن الأهم من ذلك هو أن الآيات من (٨ ـ١١) والتى نعتها (رودويل) بالدمج المتأخر تبدو مترابطة بدرجة كبيرة مع الآيات التى تسبقها والتى تأتى بعدها ، إذ إن الأفكار تنساب بجمال ورقة ، وهاهى الآيات : ﴿ **وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير * إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير * وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور** ﴾ [الملك آيات ٦ـ١٣]

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٢٣ـ ٦٥ .

والآن ، وإذا كانت الآيات من (٨ ـ ١١) لم تنزل فى نفس الوقت الذى أنزلت فيه بقية السورة ، فما هذا إلا دليل وإثبات لما جاء به الإسلام من أن آيات القرآن وسورة ليست مرتبة فى المصحف حسب ترتيبها التنزيلى ، ولكنها مرتبة وفق خطة إلهية وكفى .

ولقد ادعى (رودويل) أيضاً أن : « الآيات من (٢٤ـ٦٠) من سورة (الذاريات) لا تنتمى إليها أبداً ، وإنما أضيفت إليها بعد ذلك ، ولعلها جاءت إثر عملية تنقيح الكتاب وتعديله على عهد عثمان الذى أراد أن يصلها بما سبق عليها من آيات »[1] . ويمكن هنا أن نثبت خطأ هذا الإدعاء ، فالآيات من (٢٤ـ٦٠) من السورة المذكورة هى تكملة طبيعية للموضوع الذى بدأ الحديث عنه فى الآيات من (١ـ٢٣) حيث تستهل السورة بالقَسَم (١ـ٤) ، ثم يأتى التحذير من الآخرة فى الآيات (٥ ـ ٦) ، فالذين آثروا الحياة الدنيا وزينتها وأنكروا الآخرة ينتقدون فى الآيات (٧ ـ ١٢) ، ثم يوصف بعد ذلك الثواب للمؤمنين ، والعقاب للمشركين فى الآيات (١٣ـ ١٩) ، ثم ينبه فى الآيات (٢٠ـ٢٣) إلى النظر إلى آيات الله فى الكون من حولنا ، أما الآيات (٢٤ـ٥٣) فهى تذكر بآيات الله فى التاريخ ، وكيف جاء هلاك كل أمة كافرة اتهمت نبيها بالسحر والجنون ، وأخيراً تجئ إشارة للذين يكفرون برسالات الأنبياء فى الآيات (٥٤ ـ٦٠) فتحوى تذكيراً وتحذيراً لهم .

ويبدو واضحاً أن (رودويل) قد استخدم ترجمة رديئة للأصل القرآنى العربى ليقوم بإرساء دعائم نظريته التى حاول تأليفها ، فهو يؤكد أن كلمة (سَقَرْ) المذكورة فى سورة (المدثر) تعطى نوعاً من النشاز فى النغمة فيقول : « إنها ربما دسّها الكتّاب أثناء كتابتهم للكلمة الملائمة » مع العلم بأنه لم يذكر تلك (الكلمة الملائمة) التى دارت

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٢٣ ـ ٦٥ .

http://al-maktabeh.com

بخلده[1] ، ولكن لنر كيف تنتهى الآيات من (١٨ـ٣٠) من سورة (المدثر) من المصحف :

﴿ إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تبقى ولا تذر * لوّاحة للبشر * عليها تسعة عشر﴾ [المدثر ١٨ ـ ٣٠]

ولا شك أن وجود التناغم هنا فعّال جداً ومؤثر ، بل إن كل كلمة قد أخذت مكانها المناسب الذى يؤكد معناها ويقويه .

افتراضات (جفرى) :

لقد جاء (جفرى) (Jwddey) بالتخمينات الخاطئة الآتية ، أولها أنه قد نفى انتساب سورة (الفاتحة) إلى القرآن الكريم ، وجهل سورة (آل عمران) فأغفلها من ترتيبه الخاص للقرآن ، ثم مضى فى زعمه بأن سورة (المسد) قد أوحيت فى السنة الثانية بعد الهجرة فى المدينة ، هذا على الرغم من أن هذه السورة هى من ضمن الوحى المبكر بمكة ، وأنها قد أوحيت قبل عشر سنوات من الهجرة كما يسجل التاريخ الإسلامى[2] ، فترتيبها فى النزول السادسة ، وكذلك اعتبر (جفرى) سورتى (التكاثر) و(الماعون) مدنيتين ، على حين أنهما فى الحقيقة مكيتان ، ثم اخترع ترتيباً تنزيلياً خاصاً به للقرآن ارتكز فى عمله على ملاحظاته الشخصية التى ربما جمعها من ترجمة القرآن التى عكف على قراءتها ، ولنظرب مثالاً على ذلك : لقد افترض أن سورة (الفاتحة) قد سبقت السورة (٩٩ ـ الزلزلة) ، و(٨٢ ـ الانفطار) و(٨١ ـ التكوير) و(٥٣ ـ النجم) و(٨٤ ـ الانشقاق) و(١٠٠ ـ العاديات) ، على حين أن

---

(١) انظر المرجع السابق نفس الصفحات .

(٢) تفسير القرطبى .

التتابع الصحيح لهذه السور طبقاً لأخبار السيرة هو (٣٠)، (٩٣)، (٨٢)، (٧)، (٢٣)، (١٤) .

وحول موضوع حذف سورة الفاتحة تماماً من القرآن ، قال جفرى: « إن الإنسان ـ كما يظهر فى هذه السورة ، يخاطب الله على العكس تماماً من بقية الكتاب حيث نرى أن الله دائماً هو الذى يخاطب الإنسان»(١) ، ولعل خطأه هنا يبدو واضحاً حسب ما نراه من الآية الآتية من سورة البقرة : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطزنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين**﴾ [البقرة آية : ٢٨٦]

ففى هذه الآية ، نرى كما نرى فى سورة الفاتحة وكما نرى سوراً كثيرة أخرى ـ أن المؤمنين قد هدوا إلى الطريقة المثلى لمخاطبة الله سبحانه وتعالى .

ثم يجئ جفرى بعد ذلك بفرضية أخرى فيقول عن سورة (العصر) « إنها سورة مكية ، ماعدا الآية الأخيرة فإنها مدنية »(٢) ، ولنقرأ السورة :

﴿ **والعصر . إن الإنسان لفى خسر*إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾ [العصر آية : ١ ـ ٣]

ولدى قراءتها من الأصل العربى أو حتى من ترجمة له ، فإننا نجزم بعدم صحة فرضية (جفرى) ، لأن السورة تظهر بصورة كاملة متكاملة.

ووفقاً لفرضية أخرى (لجفرى) جاء بها حول سورة (الجن) فيقول : « إن الآيات الخاتمة للسورة تختلف كثيراً فى الشكل والأسلوب

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب القرآن ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٢٣ ـ ٦٥ .

وتظهر وكأنها قطعة غريبة وضعها جامعوا القرآن أو كتبته »[1] ، ولنقرأ الآيات السبع الأخيرة من سورة الجن التى يبلغ عدد آياتها ثمانيا وعشرين آية : ﴿ **قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا * إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا * حتى إذا رأوا ما يوعدون فيسعلمون من أضعف ناصراً وأقل عددا * قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وإحصى كل شىء عددا** ﴾

[الجن اية : ٢٢ ـ ٢٨]

وهكذا نشعر تلقائياً فور قراءة هذه الآيات كيف بات (جفرى) مخطئاً فى مزاعمه .

المعيار الملفق للتمييز بين الوحيين المكى والمدنى :

مما لا شك فيه أن الحافز لتأليف أية نظرية مهما كانت تتعلق بالترتيب المصحفى والتنزيلى لم يقتصر فقط على (رودويل) (Rodwell) و(جفرى) (Jeffery) ولكنه شمل أيضاً (لامنس) (Lammens)ذلك الذى لفق معياراً للآيات المدنية ، فحواه أن تلك الآيات قد ابتعدت تماماً عن الترهيب الإلهى من يوم الحساب[2] ، ولكن ذلك يظهر منافياً تماماً للحقيقة التى بدت واضحة فى الأمثلة القرآنية التى سردناها فى هذا الفصل والفصول الأخرى .

لقد ضل أولئك المعلقون الذين حاولوا خلق مقياس للتفريق بين السور المكية والمدنية يغاير حقائق التاريخ . ولنضرب لذلك مثالاً ؛ لقد

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lammens) وفى المرجع انظر ص ٦٣ ، ٦٥ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٢٣ ـ ٦٥ .

افترض (بل) (Bell) أن « اهتمام محمد بأخلاقيات المجتمع ، ومحاربة الفساد والخيانة والتعفن الأخلاقى فيه ، كان ذلك فقط فى بداية المرحلة التشريعية فى المدينة »[1] .

ولكن الحقيقة لم تلبث أن ظهرت ، وبات خطأ نظريته واضحاً للعيان ، ذلك أن النبى ﷺ قد حارب الاختلال الأخلاقى فى كل مراحل بعثته ، وكلمة (الفساد) وجدت فى كل من الوحى المكى والوحى المدنى على السواء ، وسورة (الفجر) وهى سورة مكية شاهدة على ذلك : ﴿ **وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب** ﴾ [الفجر آية ١٠ـ١٣]

ثم انعطف أولئك الدارسون إلى منعطف آخر فى تفكيرهم ، ويتمثل ذلك فى عبارة (بل) التى تقول : « من السور المشكوك فى أمرها سورة (البينة) ، تلك التى اعتبرها (موير) مكية التنزيل ، واعتبرها (جريم) كذلك بعد تردد ، ثم اعتبرها (نولدكه) مدنية . كذلك ارتاب الدارسون فى سورة (الحج) ، فصنفها (نولدكه) على سبيل التمثيل لا الحصر ضمن السور المدنية الممزوجة بعبارات مكية . ومن ثم فإننا نرى أن المستشرقين قد صنفوا السور المكية إلى مجموعات تتضمن ما لا يعترفون بكمال ترتيبها على نحو تنزيلى »[2] .

لقد استبدت بعقولهم فكرة غير سوية أملت عليهم معياراً ملفقاً لا يقبل إطلاقاً ، وذلك ليتسنى لهم تقرير زعمهم بأن سور القرآن يمكن ترتيبها على نحو تنزيلى ، مع قناعتهم التامة باستحالة دحض الترتيب الحقيقى والقائم لسور القرآن ، ومتجاوزين للأسف تلك الحقيقة الناصعة، وهى أن سور القرآن الكريم وآياته لم يكن مقصوداً مطلقاً أن ترتب تنزيلياً حسب ما يهبط على الرسول ﷺ من وحى السماء .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص١٠٩ ـ ١١٣ .
(٢) انظر المرجع السابق فى نفس الصفحات .

تجميع الآيات المكية والمدنية :

أشرنا فى الفصل السابق إلى أن كثيراً من السور القرآنية تحوى عدد قليلاً من الآيات المكية ويكون الباقى كله موحى فى المدينة ، والعكس صحيح .

والآن لننظر إلى ما بين أيدينا ؛ إن مثل هذه الآيات القليلة على الرغم من أنها قد أوحيت قبل بقية السورة التى تحويها أو بعدها بعد سنوات ، فإن الشكل العام للسورة ككل يبدو غاية فى الإتقان والضبط ، كما أن توارد الأفكار « والذخيرة الضخمة من الإيقاعات الدقيقة المعقدة» كما حدّث عنها (أربرى) (Arberry) ولّد ذلك كله تدفقاً وسهولة ، من غير صدع أو إعاقة .

ولسوف نعرض الآن لبعض الأمثلة التى سنتناولها بالمناقشة ، كما أن (الملحق ٢) سيقدم قائمة بعدد أكبر من السور التى أوحى جزء منها بمكة والجزء الآخر بالمدينة .

١ ـ فى سورة (٩ ـ التوبة) أحيت الآيات المائة والتسع والعشرين على قلب النبى ﷺ فى المدينة ، عدا الآيتين الأخيرتين اللتين أوحيتا فى مكة قبل ذلك بأعوام ، وهاهى آخر ست آيات فى السورة :

﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون * أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون * وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون * لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العريش العظيم ﴾ [التوبة آية ١٢٤ ـ ١٢٩]

ويتضح من الآيات ذلك التمييز بين موقف الكافرين وموقف المؤمنين من أى سورة منزّلة ، فالذين فى قلوبهم مرَضٌ فقْدان الدين يتناقص إيمانهم بصورة مطردة لدى سماعهم لأى سورة ، ويولون الدبر سراعاً بسبب من عدم الوعى والفهم ، وهو ما نراه فى الآيات من (١٢٤ـ١٢٧) . أما فى الآية (١٢٨) فإن المؤمنين مخاصبون فيها بما يتعلق بوصف رسولهم المرسل إليهم من بينهم ، ثم يريح الله تعالى نبيه صلي الله عليه وسلم فى الآية (١٢٩) فيقول تعالى ما معناه : لو أعرض الكافرين عن قبول الرسالة فما عليك يا محمد إلا أن تتوكل علىّ ـ أنا الله ـ فأنا رب العرش العظيم .

والغريب أن يأتى مستشرق يدعى (لامنس) (Lammens) بنقد مريب ناجم عن عدم القدرة على فهم الهدف وتمييزه من الآيات السابقة، فيقول : « إن هذه الآيات مدنية التنزيل ، إنها ضلت طريقها وشردت لتدخل فى عداد الآيات المكية » !!

٢ ـ إن سورة إبراهيم ، وعدد آياتها ثنتان وخمسون آية ، قد نزلت كلها فى مكة ، عدا الآيات (٢٨)،(٢٩)،(٣٠) اللواتى نزل بهن الوحى فى المدينة ، بعد ذلك بسنوات ، وهى الآيات من (١٤ـ٣١) :

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * توتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار * يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء * ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار * وجعلوا لله أنداد ليضلوا عن سبيله

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٤٧ .

قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار * قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ [إبراهيم آية ٢٤ـ٣١]

ونرى أن هذه الآيات تناقش قضية المشابهة بين الكلمة الطيبة والشجرة الشامخة القوية ، ذات الجذور العتيدة ، وذات الثمرة الناضجة والوافرة فى جميع فصول السنة ، وكذلك المشابهة بين الكلمة الخبيثة والشجرة الفاسدة الضعيفة التى تجتث من فوق الأرض بكل بساطة ، وهذا هو المضمون حتى نهاية آية (٢٦) . بعد ذلك يأتى سيرة الكافرين وخاصة أولئك الجاحدين منهم ، الذين بدّلوا نعمة الله وأحلوا محلها الكفر والعصيان فما كان مصيرهم إلا التيه والضياع كما جاء فى الآيتين (٢٨) ، (٢٩) ، ثم تأتى آية (٣٠) بتوضيح أن أولئك الجاحدين ابتعدوا عن الله تعالى الذى يخبرهم : إن تمتعوا الآن فمأواكم بعد ذلك هو النار ، وأخيراً فى آية (٣١) أمر النبى ﷺ بأن يخبّر عباد الرحمن أن يقيموا الصلاة ، وينفقوا مما رزقهم الله فى السر والعلن ، قبل أن يأتى يوم تحاسب كل نفس عما اقترفت من أفعال ، ولن يكون هناك أى نوع من المقايضة أو المنح على غرار ما كان يفعله الناس فى الحياة الدنيا .

٣ ـ لقد نزلت سورة الحجر بأياتها التسع والتسعين فى مكة ، باستثناء اية (٨٧) التى لها أصل مدنى ، ونستعرض الآن الآيات من (٨٥ ـ ٨٩) :

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لاتية فاصفح الصفح الجميل * إن ربك هو الخلاّق العليم * ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين * وقل إنى أنا النذير المبين ﴾ [الحجر آية : ٨٥ ـ ٨٩]

والخطاب فى هذه الآيات للنبى ﷺ ، وهو يؤمر فيها أن يتأمل خلق الله من حوله ، فى السموات والأرض ، ويرى أن كل شيء قد خلق بالحق ، وأن كل دليلة من الدلائل تؤكد حقيقة اليوم الآخر ، وهو ما تتضمنه آية (٨٥) ، أما آية (٨٦) فتجزم بأن الله تعالى هو الخالق العليم بكل شيء ، وتحوى آية (٨٧) تذكيراً دائباً للنبى ﷺ بفضل الله تعالى عليه ومنته ، وتشتمل آية (٨٨) على أمر للنبى بأن يخفض جناحه للمؤمنين ، يعنى أن يكون طيباً متجاوباً معهم ، وألا يحزن على من أعرضوا من قبل دعوته ، من أجل عالم شهواتهم المحدود ، وأخيراً تحوى آية (٨٩) إرشاداً للنبى ﷺ أن يدوعو الناس وينذرهم من عذاب الله تعالى.

الروابط بين السور المتعاقبة :

وعلمية دراسة الروابط بين كل سورتين متعاقبتين فى المصحف تعطى برهاناً آخر على حقيقة وحى الترتيب المصحفى للقرآن على قلب محمد ﷺ ، وأن ذلك لم يكن جزافاً ، وهاهى بعض أمثلة لتوضيح هذه النقطة :

١ ـ إن العلاقة بين سورة (١ ـ الفاتحة) وسورة (٢ ـ البقرة) تبين أن الأولى تنتهى بتضرع إلى الله تعالى : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ فى حين تستهل السورة الثانية بإشارة إلى معنى الهداية نفسه ، ففى مطلع سورة البقرة : ﴿ **ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ [البقرة آية ١ ـ٢]

ونرى أنها تعطى إجابة إلهية عن توسل الإنسان فى نهاية سورة الفاتحة .

٢ ـ إن الآيتين الأخيرتين من سورة (الأنفال) تصفان السلوك التعاونى والأخوى للمؤمنين ، وتبشرهم بالثواب الإلهى ، ثم تأتى سورة (التوبة) التالية لها مباشرة فى المصحف فتستهل بالتحذير للكافرين

والمشركين والمنافقين ، وبذلك تمثل السوتان معاً تعارضا مؤثراً بنّاء للقارئ المؤمن ، فيقنعه على الدوام باتباع الطريق المستقيم والبعد عن الطريق المعْوَج .

٣ ـ تخاطب كل من سورتى (٩٣ ـ الضحى) و(٩٤ ـ الشرح) الرسول ﷺ ، فتحدثه الأولى أولاً بصورة مريحة لينة ، يقول تعالى :

﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللأخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فآوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ [الضحى آية ١ـ١١]

فهو هنا يذكر النبى برحمته به ، وفضله عليه ، إذ آواه عندما كان يتيماً ، وهداه عندما كان ضالاً حائراً ، وأغناه عن السؤال عندما كان فى حاجة إلى الناس ، وهو ما نراه فى الآيات (٦ـ ٨] ، ثم نراه فى نهاية السورة يحظر عليه تعالى أن يقهر يتيماً أو يرد سائلاً بقسوة ، وإنما ينبغى عليه أن يعلن ربه عليه ، ويحدّث بها الناس .

ثم نرى بعد ذلك من سورة (الشرح) نوعاً من التكملة لسورة (الضحى) ، فنراها مبتدأة بتذكير النبى ﷺ ببعض ما أنعم الله تعالى به عليه ، فيقول تعالى : **﴿ ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك ﴾** [الشرح اية ١ـ٤] ، ولعل العلاقة بين السورتين تبدو قوية واضحة .

ومن أمثلة كهذة كثيرة ، ومن صفحات القرآن يبين لنا أنه ليس مجرد كتاب تأريخ عادى ، بحيث ينبغى على كل جملة أن تتبع الجملة السابقة عليها زمنياً .

ولا ريب الآن فى أن المستشرقين السابق ذكرها قد بذلوا قدراً هائلا من الوقت والجهد فى محاولتهم لترتيب آيات القرآن فى شكل آخر مختلف عن هذا الموجود فى المصحف . ولنسأل ؛ هل وجه هؤلاء المستشرقون جهدهم واهتمامهم لمادة القرآن العظيمة ، وإلى الثروة الهائلة من الأفكار النبيلة التى يحفل بها هذا الكتاب المقدس

كم كانت نتائج مجهوداتهم الجبارة ستكون مثمرة ، لو أنهم وجهوها فى هذه السبيل !!

* * *

http://al-maktabeh.com